ترجمات | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 10 يوليو 2019

ثقافة الحجاب

جوان والاش سكوت
ترجمة: أحمد منصور

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2019
All rights reserved © 2019

ثقافـة الحـجـاب:

أزمة حقيقية للتعددية الثقافية الأوروبية

بين تأريخ ريتا تشين، وسوسيولوجيا سارة ر. فارس، وفلسفة رافية زكريا[1]

جوان والاش سكوت[2]

ترجمة: **ذ. أحمد منصور**[3]

1 العنوان الأصلي:

THE CULTURE VEIL; The real crisis of European multiculturalism, https://www.thenation.com/article/the-culture-veil/,

مجلة The Nation، عدد 09 أكتوبر 2017

2 جوان و. سكوت Joan W. Scott هي مؤلفة كتاب «سياسة الحجاب». كتابها الجديد هو الجنس والعلمانية.

3 كاتب وباحث في علوم التربية ومترجم، المغرب

بينما أنا في طريقي من بروكسل إلى باريس قبل بضع سنوات على متن القطار السريع، صادفت شابة فلبينية في زيارتها الأولى إلى فرنسا من أجل قضاء عطلة نهاية الأسبوع من عملها في بلجيكا. عندما اخترق القطار ضواحي باريس، التفتت إليَّ قائلة وعلامات الدهشة مرسومة على محيّاها: «لم أكن أعلم أن الفرنسيين ذوو بشرة سوداء.» وهو ما فاجأني أيضا إلى حين نظرت من النافذة ولاحظت أننا في الضواحي، والتي تضم أحياء معزولة تحيط بالمدينة، ويقطنها الكثير من «المهاجرين» من غرب إفريقيا وشمالها، وأستعمل كلمة «المهاجرين» بكثير من التوجس، لأن الكثير من هؤلاء الناس هم من المقيمين القدماء في فرنسا، إضافة إلى أن الكثير منهم يحملون جنسية فرنسية. ومع ذلك تستخدم الكلمة بانتظام في فرنسا لتمييزهم عن الفرنسيين ذوي الأصول الفرنسية - أي الأفراد (البيض) أصحاب الأرض الشرعيون.

لقد شاع تداول كلمة "مهاجر" كنوع من التهكم في هذه الأيام، والذي تجاوز فرنسا إلى باقي الأقاليم الأوروبية والولايات المتحدة، ويلقى عليهم اللوم في كل ما يحدث من مشاكل: الجريمة والبطالة والمرض وتدهور الخدمات العامة واستنفاد الأموال العامة والتهديدات على الثقافة الليبرالية وأعرافها. ويروج سياسيو الشعبوية اليمينية في جل بلدان الغرب لخطط تطهير الوطن من هؤلاء الغزاة البذيئين وإجلائهم والحد من تدفقهم بغية استمالة الناخبين. وأصبح تداول «أزمة» الهجرة ذريعة مقنعة لمناقشة عدة قضايا أخرى من قبيل السلالة والعرق والدين والجنس، وخاصة، التكاليف البشرية الناجمة عن الرأسمالية العالمية والتفاوتات المتزايدة التي ولدتها، سواء على المستوى الداخلي لدول العالم أو عبرها.

تاريخيا، يعود تداول «أزمة المهاجرين» إلى وصول موجات اللاجئين الفارين من الحرب والعنف في أفريقيا والشرق الأوسط، إلا أن تدفق اللاجئين الحاليين ساهم في تعزيز هذا الخطاب. وتحاول ثلاثة كتب جديدة ووازنة أن تستبصر خبايا معالم الأزمة الحالية ومدارسة القلق الاقتصادي والسياسي والثقافي دراسة معمقة ومتأنية. يقدم كتاب «أزمة التعددية الثقافية في أوروبا» لكاتبته «ريتا تشين» تاريخًا مقارَنًا للطرق التي تعامل بها السياسيون في العديد من دول أوروبا الغربية مع الأعداد المتزايدة من المهاجرين غير الغربيين منذ خمسينيات القرن الماضي إلى الحاضر. وتدرس «سارة ر. فارس» من خلال كتابها «باسم حقوق المرأة» التقارب غير المتجانس في السنوات الأخيرة بين الأحزاب السياسية اليمينية القومية والليبرالية الجديدة وبعض الحركات النسائية حول قضية «التحرر» وعلاقته بالنساء غير الغربيات - وخاصة المسلمات - في فرنسا وإيطاليا وهولندا. وتتبنى «رافية زكريا» عبر كتابها «الحجاب» تجربة المرأة المسلمة عوض مقاربة أوروبية علمانية بيضاء في تتبع التمثلات النمطية حول الحجاب في الثقافة الغربية، ومن ثم دراستها بطريقة شخصية للغاية لمعانيه العديدة من منظور النساء المحجبات.

وعلى الرغم من الاختلافات القائمة بين هذه الكتب الثلاثة، إلا أنها تجتمع في توضيح مساعي الديمقراطيات الليبرالية الغربية، منذ الخمسينيات، في تطوير استراتيجيات إدارة التعددية في المجتمعات التي كانت تعتبر ذات يوم متجانسة (أي علمانية وبيضاء ومسيحية). وتميزت بعض دول الغرب بالازدواجية في التعامل مع المهاجرين والمتمثلة في تعودها على استيعاب الأوروبيين الآخرين منذ وقت طويل من جهة، وامتعاضها من وصول مهاجرين من المستعمرات السابقة من جهة أخرى. وأدت النزعة العنصرية التي بررت الغزو الإمبراطوري، إلى اعتبار هؤلاء الأفراد ذوي البشرة الداكنة، ومعظمهم من المسلمين، على أنهم ليسوا مختلفين فحسب بل دونيين، وأن اختلافهم يشكل تهديدا للهوية الوطنية الأوروبية. كان من المرجح تحمل وجودهم كحل مؤقت لسد خصاص اليد العاملة؛ لكن صار الأمر أكثر تعقيدا، باعتبارهم وعائلاتهم كمقيمين دائمين يتمتعون بحقوق متساوية للمواطنين الآخرين.

تقدم ريتا تشين أستاذة التاريخ في جامعة ميشيغان في كتابها معلومات مفصلة حول السياسات المختلفة التي طُورت في البلدان التي درستها: فرنسا وألمانيا وبريطانيا وسويسرا وهولندا، وهي لا تكتفي عبر دراستها المقارنة بتسليط الضوء على سياساتها المختلفة فحسب، بل وتشدد أيضًا على أوجه التشابه الشاملة بينها، والتي تعتمد أساسا العنصرية الثقافية في مواجهة امتداد الجماعات العرقية والدينية المتنوعة. وتطلق تشين على هذا التنوع «التعددية الثقافية»، وهو مصطلح ظل يحافظ على مطاطيته، رغم تخصيصها لفصل كامل لجرد تعريفاته المختلفة. هذا الاختلاف في توظيف المصطلح، أفقد تشين لبعض من حدة التحليل، وتجمل معاني التعددية الثقافية في وصف حقيقة موضوعية واستحضار السياسات التي طُورت استجابة لهذا الواقع، ولقب وظفه السياسيون الأوروبيون في التسعينيات لتمييز سياساتهم عن السياسات الأمريكية المهينة التي اعتبرت التعددية الثقافية احترامًا إيجابيًا للاختلافات السلالية والعرقية، ودلالة على طبيعة المجموعات السكانية المختلفة والخطابات المتعلقة بهم. ومع ذلك، تقدم تشين روايات تاريخية غنية عن الاستمرارية في سياسة الهجرة في تلك البلدان والتغييرات التي طالتها.

استهلت تشين رواياتها بتوظيف اليد العاملة، وأشارت إلى أن برامج العامل الضيف التي انطلقت بعد الحرب العالمية الثانية، وازدهرت في غضون التوسعات الاقتصادية في الستينيات، وإلى توظيف الرجال من المستعمرات السابقة من أجل سد الخصاص في العمالة الأوربية: "ساهمت الشواغل المزدوجة للإمبراطورية وجلب العمال... في ظهور مجتمعات متعددة الثقافات." وقام الأوروبيون بإعداد برامج تشجع العمال المهاجرين الجدد على التعبير عن الاختلاف الديني والثقافي كوسيلة للحفاظ على ارتباطاتهم ببلدانهم الأصلية وعودتهم، كما كان متوقعا، إلى ديارهم فور انتهائهم من العمل. ومن أهم أمثلة هذه البرامج جلب أئمة وفقهاء من بلدان هؤلاء العمال. لم تكن لتلك السياسات علاقة قوية بالتعددية الثقافية، بمعنى الاعتراف

بشكل إيجابي بالطبيعة التعددية للدول الأوروبية. في الواقع، كان الأمر عكس ذلك تمامًا: لقد سعوا إلى ضمان طبيعة قوة العمال المهاجرين، باعتبارهم «جيشًا احتياطيًا صناعيًا» قابلا للاستعمال والاستبدال والتخلص منه.

عندما لم تعد هناك حاجة للعمال الضيوف خلال فترة الركود الاقتصادي في السبعينيات، بادر قادة أوروبا الغربية إلى إغلاق حدود دولهم، وإنهاء توظيف العمالة الأجنبية، غير أنهم واجهوا معضلة شبه مستحيلة: هؤلاء العمال كانوا قد جلبوا عائلاتهم في العقود السابقة بهدف الاستيطان على الأراضي الأوروبية، واعتادوا العيش في أوروبا في مجتمعات أشرفت الدولة عبر برامج مختلفة على تشجيع التعبير عن اختلافاتهم الدينية والثقافية. والآن صار لزاما على دول أوروبا الغربية أن تتصالح مع سياساتها العمالية والثقافية، بعدما جلبت عن غير قصد الإمبراطورية إلى الوطن. وحسب ما أوردته تشين «أدى التدافع الذي استمر لخمسة وعشرين عامًا لجلب عمالة أجنبية إلى الإقامة الدائمة لهؤلاء العمال المؤقتين، وأغلبهم من ذوي بشرة مختلفة وغير مسيحيين وغير أوروبيين. ... مجتمعات من مختلف الأعراق والثقافات والأديان عاشوا جنباً إلى جنب مع البريطانيين والفرنسيين والهولنديين والألمان، مما أدى إلى ظهور مجتمعات متعددة الثقافات في جميع أنحاء أوروبا الغربية».

وأحد جوانب هذه القصة التي لم تولِها تشين حقها هو المشكلة الاقتصادية الكبيرة التي فرضها وجود هؤلاء العمال الفائضون والعاطلون عن العمل وعائلاتهم، والذين وجدوا أنفسهم محرومين بشكل مضاعف بسبب اختلافهم الثقافي، غير أنها وصفت بالتفصيل مختلف الاستراتيجيات التي طورها القادة الوطنيون للتعامل مع وجود هؤلاء الضيوف الذين تجاوزوا مدة الترحيب بهم، وشملت ازدواجية مرعبة: سياسات تروج لخطاب المجموعات العرقية والسلالية، باعتبارها هويات منفصلة ومعادية لبعضها البعض من ناحية، وكنايات ملطفة عن تحسين «العلاقات بين الأعراق» التي تنفي هياكل التمييز التي تم تسميمها سابقا من ناحية أخرى. وضمت هذه الاستراتيجيات أيضا النداءات الرامية إلى الاستيعاب والاندماج التي وضعت عبء التوافق الديني والثقافي على عاتق المهاجرين أنفسهم. ولم ترغب العديد من دول أوروبا الغربية في الاعتراف «بمدى التغير الجذري الذي طال مجتمعاتها»، وسعى العديد من السياسيين إلى عدم تسييس الوضع الذي سيفجر، رغم الجهود المبذولة، نقاشات حادة ومتأزمة حول العرق والهجرة والهوية القومية في أواخر الثمانينيات والتسعينيات.

ويبدو أن العام 1989 كان نقطة تحول مفصلية بالنسبة إلى العديد من بلدان أوروبا الغربية؛ وهي ذات الفترة التي ركزت فيها سلسلة من التطورات اهتماما جديدا بالمهاجرين، وخاصة المسلمين. وتزامن الاحتفال

في فرنسا بمرور مائتي عام على الثورة الفرنسية مع انتصار انتخابي مهم للجبهة الوطنية لجان ماري لوبان (تُعزى إلى نجاح حملاته المناهضة للمهاجرين) وبدايات قضية الحجاب (محاولة منع الفتيات المسلمات المحجبات من ولوج المدارس العامة). وفتح سقوط حائط برلين في خريف ذاك العام مناقشات حول معنى الديمقراطية (الأسواق الحرة والتحرر الجنساني)، بالإضافة إلى تدفق العمالة الرخيصة المهاجرة من أوروبا الشرقية والوسطى. واعتبر هؤلاء العمال المهاجرون الجدد مشكلة في حد ذاتها، لكنهم ليسوا بحدة المسلمين، خاصة بعد الجدل الذي احتدم بعد إصدار فتوى ضد الروائي سلمان رشدي[1]، وصيغ هذا الجدل في قضية دولية ساهمت في تعزيز وجهات نظر العديد من الأوروبيين الليبراليين حول الإسلام، وخاصة الرافضون للعدد المتزايد من المسلمين، سواء المهاجرين أو المواطنين داخل بلدانهم. وكتبت: «بالنسبة إلى العديد من الأوروبيين الغربيين، ساهمت هذه اللحظة الحاسمة في بناء الكثير من التمثلات، ومنها تنميط المسلمين المهاجرين من أصول قومية مختلفة في فئة واحدة مميزة، وتحديد الإسلام لأول مرة كدين متزمت وغير متسامح يفسر فشل المهاجرين المسلمين في الاندماج بشكل صحيح ... وإظهاره كتهديد مركزي لـ «القيم الليبرالية»... ويتخلل جميع القوى الأوروبية الغربية الكبرى».

وتزامنا مع احتفال الكثيرين بانتصار الديمقراطية الليبرالية على الشيوعية، وجه المعلقون اهتمامهم إلى «فشل» التعددية الثقافية وسياساتها في الاعتراف بالتنوع وتقديره. ولكن ما قصدوه بـ «الفشل» لم يكن في عدم تمكن السياسات في خلق مجتمعات أكثر ترحيباً، بل في كون الثقافة الإسلامية ببساطة، لم تكن في انسجام مع التقاليد القومية للبلدان الأوروبية. وتم تعريف «ثقافتهم» في جميع أنحاء أوروبا على أنها معادية «لثقافتنا»، وشاع تداول الثقافة كمرادف لما أطلق عليه بعض العلماء النقاد «العنصرية الجديدة». في نظر تشين «حلت (الثقافة) محل علم الأحياء، باعتبارها السمة الرئيسة في الاختلاف غير القابل للتوافق».

تستشهد تشين بتعليقات مارجريت تاتشر في العام 1978 كمثال على ما تصفه بهذه الموجة الجديدة من "القومية الثقافية"، إذ صرحت ردّا على تقرير يشير إلى هجرة ملايين الأشخاص من باكستان إلى المملكة المتحدة بحلول نهاية القرن قائلتا "تعتبر هذه الهجرة في الوقت الراهن أمرا مروعا، وأعتقد أنها تعبر عن مخاوف الناس من إغراق ثقافتهم بسبب تدفق أناس من ثقافة مختلفة. لقد ناضل البريطانيون كثيرا من أجل الديمقراطية والقانون، وقدموا الكثير للعالم بأسره، وفي حالة تعزيز هذه المخاوف، فإن الناس سوف يشهرون معاداتهم نحو أولئك القادمين."

1 أصدر آية الله الخميني فتواه ردّا على الكتاب الذي ألفه سلمان رشدي تحت عنوان «آيات شيطانية»، تضمن الكثير من الإساءات للدين الإسلامي وللرسول صلى الله عليه وسلم وزوجاته وأصحابه رضوان الله عليهم. (المترجم)

وسرعان ما تحول هذا الخوف المسيّس بشكل متزايد من "إغراق" الثقافة الأوروبية إلى "صراع الحضارات"، وهو مصطلح ابتدعه العالم الإسلامي برنارد لويس في العام 1990، ثم شاع تعميمه في مقال نُشر في 1993 من قبل العالم السياسي صموئيل هنتنغتون. استحضر المصطلح الحروب الصليبية في فترة العصور الوسطى من أجل حشد قوى العلمانية الغربية المعاصرة في حرب صليبية ضد العدو المسلم.

ولتجريد هذا العدو من سلاحه، سنَّت ولايات أوروبا الغربية قوانين وأنظمة تراوحت بين تجريم ارتداء الرموز الدينية والحد من تشييد مآذن المساجد المرتفعة. شددت هذه الدول الأوروبية محاولة منها في الاحتواء (يشار إليها مجازا بـ "الاندماج") على شروط الأهلية لتأشيرة الدخول والحصول على الجنسية، وبرمجة امتحانات محو الأمية الثقافية والإتقان اللغوي للمهاجرين المسلمين وغيرهم من البلدان غير الغربية. وفي الواقع، كما تشير عالمة الاجتماع سارة فارس، كان من المتوقع أن يمتلك المهاجرون معرفة ببلدهم الجديد "قبل أن يبدؤوا الاتصال الفعلي بـه".

وتتبنى فارس في كتابها «باسم حقوق المرأة» نهجا أكثر تنظيرا، وتقدم ملحقًا لرواية تشين التاريخية التي تركز على إشكالية المهاجرات غير الغربيات، ومعظمهن مسلمات. وبينما تخصص تشين فصلًا واحدًا للحديث عن المرأة والجنسانية، تصوغ فارس كتابها بالكامل من أجل هذا الموضوع.

تصرح فارس أنه في بداية السبعينيات والثمانينيات أصبحت النساء المهاجرات غير الغربيات موضوعًا للنقاش السياسي والقوالب النمطية. بدأت الازدواجية الجنسانية الاستشراقية تطبق عليهن: فبينما كان المهاجرون الذكور يصورون عادة كمتوحشين وغير متحضرين، صورت النساء على أنهن سلبيات وخاضعات. «وفي المقابل، تسهم القوانين كالتي تسمح حاليا بالطلاق والإجهاض وتحارب التمييز في التعليم والتشغيل والممارسات الثقافية الموسومة بـ «الديمقراطية الجنسانية» أو «التحرر الجنسي» في تقوية النساء الأوروبيات الغربيات واستقلالهن».

حولت العديد من هاته الحركات النسائية اهتمامها إلى الحجاب الذي ترتديه النساء المسلمات، بزعم أنه رمز لتخلف المهاجرين وعلامة على عدم المساواة بين الجنسين المرفوضة عند الغرب. ويتولد الدافع لإنقاذ النساء المسلمات حسب فارس نتيجة لما وصفته «بالتقارب الأيديولوجي» الحاصل بين المطالب بالمساواة بين الجنسين وحملات مناهضة المهاجرين الأجانب، أو ما وسمته بـ «الحركات النسو- قومية» في العنوان الفرعي لكتابها. وتورد في مجمل كلامها أن «الحركات النسو-قومية»، «تمثل محاولات الأحزاب اليمينية والليبرالية الجديدة في أوروبا الغربية لتعزيز السياسة العنصرية ومعادات الأجانب من خلال الترويج

للمساواة بين الجنسين، في حين أنها تستغل إشراك أبرز نشطاء الحركات النسائية والموظفات الحكوميات اللواتي يدافعن عن المرأة في تنميط الإسلام كدين وثقافة تعززان بالأساس كراهية المرأة».

تصرح فارس أن القلق السياسي من المسلمين بشكل عام اتخذ شكل الدعوة لتحرير المرأة المسلمة على وجه الخصوص بسبب "منطق اقتصادي محدد": فبينما اعتبر المسلمون وغيرهم من المهاجرين غير الغربيين على أنهم "جيش احتياطي من العمالة" (أي قوة عمل تكميلية لا تستخدم إلا عند الحاجة)، كان يُنظر للإناث اللائي يشغلن وظائف الخدمة المنزلية والرعاية كجزء من "جيش العمل النظامي"، والذي يشكل قوة عمل لا غنى عنها، ولا يمكن تعويضها. وتضيف في ذات السياق أن الهدف من استغلال القوة العاملة النسائية المهاجرة هو تأمين الاستنساخ الاجتماعي للسكان أنفسهم.

وبرزت أهمية هذه القوة التي توفر الرفاهية الاجتماعية والاقتصادية للدول الغربية في سياسات الدول التي درستها فارس: فرنسا وإيطاليا وهولندا. إذ منحت هذه البلدان مجموعة متنوعة من الدعم الحكومي إلى الأسر من أجل امتهان الخدمة المنزلية ورعاية المسنين والأطفال، وأحياناً في شكل تعويضات نقدية مدفوعة أو ائتمان ضريبي، وبهذه الطريقة، تضمن تسليع الخدمات الاجتماعية وخصخصتها في آن واحد، إذ قدمت المرأة المهاجرة المسلمة وغير الغربية "حصة الأسد من العرض". وقد حددت الوكالات الحكومية هذا العمل بأنه ضروري وحيوي؛ وسُوِّق على أنه سمة دائمة لأسواق العمل في هذه الدول، وطريقة لمساعدة النساء المسلمات على الاندماج اجتماعيًا وثقافيًا.

أصبحت العاملات المهاجرات في غاية الأهمية بالنسبة إلى الاقتصاد، لأنهن لم يشكلن منافسة حقيقية للعاملات من أصول أوروبية، وكونهن قدمن - حسب فارس - في إطار "الإصلاحات الليبرالية الجديدة لأنظمة الرفاهية والمتمثلة فيما يعرف بتسليع الرعاية... (و) تأنيث أسواق عمل معينة وربطها بأعراق محددة"، ولذا صار ينظر إليهن ليس من باب كونهن مسؤولات، وإنما كضحايا في حاجة إلى من ينقذهن. تبنى القوميون خطاب الحركة العلمانية النسائية من أجل انتقاد ما تتعرض له هؤلاء النساء من اضطهاد بسبب معتقداتهن الثقافية والدينية - كما يجسدها الحجاب. وعلى نحو مماثل، أصر العديد من النشطاء الأوروبيين في الحركات النسائية على أن "عمل الرعاية" بالتحديد هو الذي "سينقذ" النساء المسلمات عبر تزويدهن بعمالة مأجورة متحررة بطبيعتها.

وتوثق فارس لهذه الازدواجية الساخرة التي تتبناها الحركات النسائية الأوروبية؛ والمتمثلة أولا في إصرارها على أن الاستقلالية الذاتية للنساء المهاجرات ستتعزز باشتغالهن في الخدمات المنزلية كآلية لتحررهن من الكد المنزلي المهين الذي طالما سعت هؤلاء الناشطات للهروب منه، وثانيا فيما تحمله من

دلالات عنصرية وجنسانية على حد سواء، لأن هاته الحركات "تعزز شروط الاستنساخ على المستوى المجتمعي لفصل النساء المهاجرات وغير المسلمات والأدوار التقليدية للجنسين، والظلم بين الجنسين الذي يدّعون أنهم يناهضونه".

وتقدم الصحفية والفيلسوفة ذات الأصول الباكستانية، رافيا زكريا في كتابها "الحجاب" كونه تأمل شخصي رفيع المستوى، وجهة نظر جديدة تختلف عما قدمته تشين وفارس، وهي الرواية التي نادرا ما ينصت إليها السياسيون والناشطون في الحركات النسائية، والذين يربطون عدم ارتداء الحجاب بتحرير المرأة المسلمة.

وتروي الكاتبة عبر دفتي كتابها تجربتها الشخصية كمسلمة ارتدت النقاب يوم زفافها كجزء من تقاليد عرس المسلمين في كراتشي، ومشاهدتها لجدتها وهي تكسو وجهها بالنقاب كلما دنا منها الرجال في السوق، وما لاحظته عن سلوكيات النساء في مسجد "فينسبري بارك" في لندن؛ وهو ما ألهمها في استكشاف معاني الحجاب. وتضم الفصول موضوعات مختلفة: الخضوع، العفة، التمرد، الجمعيات النسائية، التآمر. ويتميز أسلوبها بالترابطي ويبتعد عن الأسلوب الخطي (الذي يتوخى شرح حجة معينة وتتبع خيوطها)، والهدف منه مناشدة التجربة الشخصية كطريقة لتأكيد استقلاليتها الذاتية، وإثارة تعاطف القارئ (الذي يُفترض فيه أنه غربي).

يقدم الحجاب- حسب رافيا- مجموعة من المعاني الذاتية والموضوعية التي تعتمد على "خصوصيات الشخص والتوجه السياسي والسياق العام". وأحد هذه المعاني الكثيرة التي تجسدها قطعة القماش هاته، هو شكل من أشكال التمكين عند النساء اللواتي اخترن ارتداءه. "ويتجرد (الحجاب) من المعنى في منأى عن السياق"، غير أنه في أوضاع محددة (داخل المجتمع المسلم وخارجه)، يمكن أن يكون للحجاب العديد من المعاني الإيجابية: كعلامة على إيمان المرأة، أو عفتها، أو رغبتها في تحديد هويتها الجماعية والمجتمعية. كما يمكن أن تمنح الشعور بالسلطة الممتعة: وهي إمكانية رؤية الآخر دون أن يتمكن هذا الأخير من رؤيتها. ويشير ارتداؤه في بعض الأحيان إلى التمرد - أي تحدي مفهوم أوروبا الغربية حول "جماليات المجال العام" - وحتى إلى نوع معين من الحركات النسائية، مما يسمح للمرأة بالتعبير عن استقلالها الفردي.

وتنتهج رافيا مقاربة مختلفة عن أسلوب فارس وتشين، حيث تبتعد عن صبر أغوار الجذور التاريخية العميقة لمسألة المهاجرين؛ فبينما ضمت تشين فصلا عن مسار تحول النساء المحجبات في التسعينيات كدلالة على عدم توافق الإسلام الثقافي مع الغرب، وتوسعت فارس في هذه الفكرة بدراستها لرمزية الحجاب عند القوميين الأوروبيين والحركات النسائية كإنكار الإسلام للمثالية الليبرالية الغربية حول

الديمقراطية الجنسانية، تتميز رافيا في تفسيرها بجمعها بين الاقتضاب وتعاملها المباشر مع الحاضر. وتصوغ أطروحتها في سياق ما يسمى بالحرب على الإرهاب الذي بدأ في أوائل العقد الأول من القرن الحالي. وهذا ما يلفت انتباه قرائها إلى الآثار السياسية الحالية على الحجاب، وتعتقد أن «المرأة المسلمة المنقبة، والتي مثلت رمز الغرابة والإثارة، وشعارا للحريم القدامى، والناضجة التي يحرم عليها العلاقات الجنسية المحرمة، لا تلائم خطاب الحرب على الإرهاب، وأن الاعتماد على خطاب شيطنة الرجل المسلم فقط، لم يعد مجديا في تبرير تلك الحرب، بل يتطلب امتداداً يشمل الشك في المرأة المسلمة، ولا سيما تلك التي لا ترغب في التخلص من الحجاب».

وبينما تعرض تشين نظرة تاريخية وتتبنى فارس نظرية سوسيولوجية، فإن رافيا تنتهج مقاربة شخصية وفلسفية تهدف إلى دحض المعنى المنمط الذي اكتسبه الحجاب في معظم أنحاء الغرب. وعبر استكشاف التجارب الذاتية للحجاب، بدأنا نشهد التأثيرات النفسية العميقة من ارتداء الحجاب أو عدمه لأولئك الذين يتخذون هذه الخيارات، وكذلك لأولئك الذين ينظرون إليهن بعدوانية أو حتى مجرد فضول. وتستشهد رافيا في كتاباتها بأحد أقوى الأمثلة المتمثلة في رغبة النساء البيض المستميتة في أيام الإمبراطورية في نزع الحجاب عن نساء المستعمرات «الأخريات»، وهي رغبتهن التي أثبتت نزعة النساء المتفوقات كممثلات لحضارة متفوقة. وتستشهد أيضا بعمل الفنانة الإيرانية الأمريكية «شيرين نشأت» كإشارة على الرسالة المروعة التي تجسد صورة امرأة منقبة تشير بمسدس نحو المشاهد: «يكشف النقاب عن بعده الذي يتجاوز قطعة من نسيج إلى الانقسام ورسم الحدود ... إن إعادة ارتداء الحجاب وعودة القهقرة إلى الجانب الأنثوي هو رغبة في الإصلاح».

ويجب أن تحظى هذه الأصداء الروحية للحجاب - «الرغبة» و«التمني» - بمزيد من الاهتمام في تحليلات الخوف من الإسلام عامة ومكانة النساء المحجبات خاصة، غير أن تجسيد المرأة المسلمة على أنها مكبوتة جنسياً هو المفتاح في فهم هذه الأصداء، وهو ما لم تتم دراسته من قبل جميع هؤلاء الكاتبات الثلاث. خلال القرن الواحد والعشرين، أصبح التحرر الجنساني (حرية الفرد الجنسية) مساوياً للمساواة بين الجنسين والحرية بشكل عام، بل تفوق على كل مقاييس المساواة الأخرى التي يمكن استخدامها. يتم تقديم شكل معين من أشكال الرغبة الجنسية (التي يشهدها الفرد المستقل في النظرية السياسية الليبرالية) على أنها ذات صبغة شمولية وطبيعية، وليس كمنتوج ثقافي خاص بالغرب. هذه النظرة للأشياء تثير اشمئزازا حول الانحرافات المزعومة للإسلام: «نحن» نسقط تجربتنا حول الرغبة المكبوتة عند «هم».

وبالتالي، فإن التناقض الصارخ بين الإسلام والغرب حول مسألة التحرر الجنساني تؤكد على شعور الغرب بتفوقه في مسألة المساواة بين الجنسين، حتى إنه يخفي التناقضات الهائلة في الثروة والوضع المعيش. وبهذه الطريقة، فإن الازدواجية التي يستحضرها العديد من الليبراليين والنشطاء النسويين والوطنيين - الحرية الجنسية مقابل الكبت الجنسي - تترجم التمييز (على أساس الاقتصاد أو العرق أو الطبقة الاجتماعية أو الدين) إلى فضيلة أخلاقية تفرض الحجر على التأثيرات السيئة التي يجلبها هؤلاء المهاجرون معهم. ولا يعود تعريف "هؤلاء الناس" على أنهم غير مقبولين إلى الفقر أو الإقصاء المعيش، بل إلى معتقداتهم وسلوكهم الرجعي، خاصة حول قضايا الجنس. وفي الوقت ذاته، فإن الاعتقاد بأن نظام العلاقات بين الجنسين "الخاص بنحن" هو نظام عالمي وطبيعي، بينما نظام علاقات "هم" منحرف وفاسد، ويؤدي إلى تهدئة القلق والشكوك التي تطارد العلاقات بين الجنسين من "جانبنا".

في فرنسا، كما اقترحت في إحدى مقالاتي، يُنظر إلى المرأة المحجبة على أنها مزعجة للغاية، لأن حجابها يوحي بأن العلاقات الجنسانية تمثل مشكلة للعلاقات الاجتماعية التي يجب معالجتها من خلال إعلان جنس بدون قيود في الأماكن العامة. هذا تحدٍّ صارخ لنظام سياسي جمهوري يعد بالمساواة للجميع، وفي المقابل استبعد تاريخياً النساء أو وضعهن في مرتبة دنيا بسبب اختلافاتهن الجنسانية، وهو الاختلاف الذي يجب أن يُعرض علناً كمبرر على معاملتهن المختلفة. إذا ما تم اختزال المساواة بين الجنسين فقط على أساس التحرر الجنسي، فإن جميع أوجه عدم المساواة الأخرى التي تواجهها النساء في فرنسا - السياسية والاجتماعية والاقتصادية - سيتم محوها، وسيتم الحفاظ على مكانة المعايير القائمة بين الجنسين. وسيتم الحفاظ على وهم الحرية بمقارنة النساء الفرنسيات شبه العاريات مع هؤلاء النساء المسلمات المكسوات بالحجاب. ورغم اختلاف الثقافات السياسية في دول أوروبا الغربية، إلا أن هناك سياسة مماثلا تنتهج في كل تلك البلدان.

من الواضح أن هناك أزمة هجرة في أوروبا، وهي جلية في الجمود الناجم عن إصرار السياسيين المتزايد في تحقيق تجانس ثقافي قومي من ناحية، ووجود جماعات متنوعة من السكان داخل الحدود الوطنية من ناحية أخرى، والتي ازدادت حدتها مع تدفق مئات الآلاف من اللاجئين من بلدان الجنوب بسبب الحروب المدمرة أو الأزمات الاقتصادية. نحن في خضم تحول مفصلي (وخاصة في تحديد أحد مفاهيم مصطلح «أزمة»): هل سيتم تقبل هؤلاء «الأشخاص السود»، الذين لمحناهم من القطار، والذين يتم عزلهم في الضواحي، كفرنسين بشكل كامل؟ هل سيأتي اليوم الذي تتغير فيه ردة فعلي من متفاجئة إلى حازمة في الإجابة عن سؤال تلك المرأة الفليبينية («نعم، بعض الفرنسيين سود»)؟ وماذا عن الحركات النسائية

الغربية؟ هل هناك توجه آخر بعيد عن ثنائيات «الغرب / الشرق» و«المتحررين جنسيا / المكبوتين جنسيا» يسهم في إنتاج رؤية أكثر واقعية في تحديد مفاهيم التحرر والمساواة بين الجنسين؟

سلطت مجموعة من النساء في فرنسا، - مسلمات وغير مسلمات، متدينات وعلمانيات – تَشكلن خلال المناقشات حول قانون الحجاب في 2003-2004، الضوء على السؤال الأخير، وأعلن أنهن يعارضن جميع أشكال الهيمنة، سواء الأبوية أو الرأسمالية أو التي تفرضها الدولة: لا لارتداء جبري للحجاب، ولا لخلع قسري له. وجدت النساء عبر التركيز على الهيمنة كقاسم مشترك مخرجا من كل الثنائيات الأخرى السياسية والثقافية المسببة للخلاف - ليس عن طريق إنكار قوتهن ولكن من خلال تقديم بديل لوضعهن في سياقهن الصحيح.

تقدم الكاتبات الثلاث وجهات نظر مختلفة حول موضوع اللاجئين وكتلة المهاجرين الذين يتوافدون على المدن الأوروبية من أفريقيا والشرق الأوسط. توحي تشين إلى أن الواقع يُظهر تكاملا حقيقيا يتجاوز ما يقره السياسيون، وهذا ما يمنح الأمل لمستقبل التعددية الثقافية. تقدم رافيا كتابها على أنه "درس موضوعي" حول الطبيعة المتعددة الوجوه للرموز الثقافية من أجل التأثير في القارئ وتغيير تصوراته النمطية عن الحجاب. كلتاهما تسعيان إلى جلب أفكار تجسد الواقع، كما لو أنهما يتحدثان عن عالمين مختلفين، رغم إقرارهما بترابطهما.

وتؤكد فارس أن المصالح المادية والخطاب الرائج متداخلان بشكل لا ينفصل، وتشدد على الطريقة التي صارت من خلالها هياكل وأيديولوجيات التمييز منتجة للمصالح الاقتصادية ومتجذرة فيها في آن واحد. إن قراءتها للحركات النسو-قومية كأمارة على الرأسمالية الليبرالية الجديدة تمنح بصيص من الأمل في تبني الحل السريع أو الفعال لحل الأزمات القائمة.

وختاما، لم تقدم الكاتبات إجابات محددة تصاغ ضمن تنبؤات مستقبلية، ولكن ركنَّ إلى النقد بدل من ذلك، وهذا ما يوسم كتبهن بالإفادة والأهمية وتوفير الرؤية اللازمة لتعميق فهمنا للمسار الذي آل بنا إلى الراهنية، وهي خطوة ضرورية للتفكير في إمكانيات الانتقال إلى مكان أفضل وما السبيل إلى ذلك.

المراجع:

Rita Chin (2017) The Crisis of Multiculturalism in Europe: A History, Princeton, NJ: Princeton University Press.

Sara R. Farris (2017), In the Name of Women's Rights: The Rise of Femonationalism, Durham, NC: Duke University Press.

Rafia Zakaria (2017), Veil, Bloomsbury Academic.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2019

All rights reserved © 2019